الاحكام التاريخية عند ابن خلدون (ت٨٠٨هـ /١٤٠٦م)
(دراسة تحليلية)

أ. م. د. سعد كاظم عبد الجنابي
كلية التربية/ جامعة القادسية
alganabisaad@yahoo.com

الخلاصة:
ركزت هذه الدراسة على ألاحكام التاريخية التي ضمنها ابن خلدون في مصنفاته التاريخية، عن الشخصيات والاحداث، سواء أكانت في عصره أم في العصور السابقة لعصره، وتميزت هذه ألاحكام بأنها احكاماً حتمية جاءت نتيجة قناعة ابن خلدون بها، فضمنها مؤلفاته حتى اصبحت رواياته كلها مبنية على منهج نقدي واضح، بغية الوصول إلى حكم تاريخي نهائي، مما جعل مادته التاريخية تختلف اختلافاً كبيراً عن غيره من المؤرخين سواء ممن سبقه منهم أم من المعاصرين له.

الكلمات المفتاحية : الاحكام التاريخية، ابن خلدون.

Ibn Khaldoon's Historical Judgments
(d. 808A.H/1406 C.E) An Analytical Study

Assist. Pro. Dr. Saad Kadhom Abed al-janabi
college of Education/ University of Al-Qadisiyah
alganabisaad@yahoo.com

Abstract

Contemporary studies have tended to analyze the historical texts of Muslim historians, to reveal the accuracy of their narratives through the use of the comparative and analytical approach. Since Ibn Khaldun's works were among the most important sources of Islamic history, this study aimed to analyze his historical narratives, reveal his positions on historical texts, and study his judgments on characters and events. The study focused on the era of Ibn Khaldun, which was free of intellectual repression of historians and writers, and studied the factors of intellectual renaissance in this era, which provided Ibn Khaldun with the scientific atmosphere to follow a new approach in treating historical texts and issuing historical judgements. The study also focused on the contradiction that Ibn Khaldun got himself into when he issued historical rulings in his works, and his being carried away by his emotions, in addition to the influence of his rulings on the political factor, which made some of those rulings confused and inconsistent with what Ibn Khaldun stated in his introduction about the necessity of The historian's commitment to objectivity and avoiding fawning over the ruler. The study relied on the three most important works of Ibn Khaldun, namely the Book of Introduction, the Book of Lessons, and the

Book of Introduction to Ibn Khaldun. It also relied on some other sources to compare Ibn Khaldun's material with them, in addition to some secondary references that covered Ibn Khaldun and his works in the study .

Key Word: Historical Judgments, Ibn Khaldoon.

المقـدمة:

إتجهت الدراسات المعاصرة إلى تحليل النصوص التاريخية للمؤرخين المسلمين، للكشف عن مدى دقة رواياتهم من خلال استعمال منهج المقارنة والتحليل. ولما كانت مصنفات ابن خلدون من بين أهم مصادر التاريخ الإسلامي، فقد جاءت هذه الدراسة لتحليل رواياته التاريخية والكشف عن مواقفه من النصوص التاريخية، ودراسة احكامه على الشخصيات والإحداث. وقد ركزت الدراسة على عصر ابن خلدون الذي كان يخلو من القمع الفكري للمؤرخين والكتاب، ودراسة عوامل النهضة الفكرية في هذا العصر، والتي وفرت لابن خلدون الجو العلمي ليتبع منهجاً جديداً في معالجة النصوص التاريخية، واطلاق ألاحكام التاريخية. كما ركزت الدراسة - أيضاً - على التناقض الذي أوقع ابن خلدون نفسه فيه عند اطلاقه ألاحكام التاريخية في مصنفاته، وانسياقه وراء عاطفته، بالإضافة إلى تأثر أحكامه بالعامل السياسي، مما جعل بعض تلك ألاحكام مرتبكة ولا تنسجم مع ما صرح به ابن خلدون في مقدمته عن ضرورة إلتزام المؤرخ بالموضوعية والابتعاد عن التزلف للحاكم. وقد اعتمدت الدراسة على اهم ثلاث مصنفات لابن خلدون، وهما كتاب المقدمة، وكتاب العبر، وكتاب التعريف بابن خلدون، كما اعتمدت أيضاً على بعض المصادر الأخرى لمقارنة مادة ابن خلدون معها، هذا فضلاً عن بعض المراجع الثانوية التي تناولت ابن خلدون ومصنفاته بالدراسة.

عصره واتجاهاته الفكرية:

لم أجد رواية تاريخية أدق من الرواية التي عرف بها ابن خلدون نفسه قائلاً: " عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون. لا اذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب علي الظن أنهم أكثر، وانه سقط مثلهم عدداً، لان خلدون هذا هو الداخل إلى الاندلس، فإن كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة، فيكونون زهاء العشرين...ونسبنا حضرموت، من عرب اليمن، إلى وائل بن حجر من اقيال العرب..."[١].

أما عن نشأته فقد ذكر ما نصه:" أما نشأتي فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن ايفعت وقرأت القرآن العظيم على الاستاذ المكتب ابي عبد الله محمد بن سعد بن برال الانصاري"[٢].

ونشأ ابن خلدون في بيئة محبة للعلم بكل أشكاله، فأصبحت هذه البيئة من أبرز الدوافع التي جعلته ينصرف إلى دراسة علوم القرآن ومبادئ النحو والأدب، فكان حريصاً على تلقي هذه العلوم من اشهر رجال العلم في تونس آنذاك، وبعد وفاة والديه بدأ رحلاته إلى الشرق والغرب، في البدو والحضر[٣].

وترك ابن خلدون تراثاً كبيراً من المصنفات كان اهمها كتاب المقدمة، الذي يعد من بين أبرز مؤلفاته، اذ قال عنه: " فأقمت بها(يعني قلعة ابن سلامة[٤]) اربعة اعوام، متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة، فسألت فيها مشابيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها، وتألفت نتائجها"[٥].

وتعدُ المقدمة تمهيداً لمصنفه الكبير الذي حمل عنوان: العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، الذي شرع في تأليفه في أواخر سنة ٧٨٠هـ[٦].

بالإضافة إلى ذلك صنف ابن خلدون كتبا عديدة أهمها: شرح قصيدة لابن الخطيب حول أصول الفقه، وشرح البردة، وكتاب في الارتماطيقي[٧]، وكتاب شرح لباب المحصل لفخر الدين الرازي، وكتب - ايضا - ملخصات عديدة حول مؤلفات ابن رشد، إلى جانب مؤلف آخر في علم الاجتماع الديني هو تهذيب السائل في علم المسائل[٨]، كما كتب ابن خلدون موجزاً في وصف بلاد المغرب بتكليف من تيمورلنك حيث ذكر ما نصه: " ثم اشتغلت بما طلب مني في وصف بلد المغرب فكتبته في ايام قليلة، ورفعته إليه، فأخذه من يدي، وأمر موقعه بترجمته إلى اللسان المغولي"[٩].

ولم تلق آثار ابن خلدون الفكرية في عصره اهتماماً كبيراً، ويبدو أن السبب في ذلك أنها كانت سابقة لعصرها، لذلك لم يستوعبها من عاصره، فظلت معظم مؤلفاته وخاصة المقدمة مجهولة لدى الكثير من الباحثين طوال أربعة قرون[١٠].

وأثر العصر الذي عاش فيه ابن خلدون على فكره ومؤلفاته، فقد عاش ابن خلدون في القرن الثامن، الذي كان كل شيء فيه يشير إلى التراجع في شتى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية، فقد توالت على العالم الاسلامي في عصره كوارث ومحن، ذكرها قائلاً: "وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن نشاهده، وتبدلت بالجملة، واعتاض عن اجيال البربر اهله على القدم بما طرأ فيه من لدن إن المائة الخامسة من اجيال العرب، بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم هذا، إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب باهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها، وبلوغ مداها، فقلص ظلها، وفل من حدها، واوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال احوالها"[١١].

وقد فقد العالم الاسلامي في عصر ابن خلدون دولة الاندلس، حيث خرجت من ايدي العرب ودخلت تحت حكم الاسبان، كما ظهرت على مسرح الاحداث عدد من الدول، فظهر على انقاض دولة الموحدين دولة بني مرين في المغرب الاقصى وعاصمتها فاس، ودولة عبد الواد في المغرب الاوسط وعاصمتها تلمسان، وبني حفص في المغرب الادنى بتونس، وهذه الدول لم تكن على وفاق سياسي، ادت الخلافات والنزاعات بينها إلى فقدان الاستقرار في المنطقة كلها[١٢].

كان ابن خلدون جزءاً من هذا الصراع حيث تقلد عدة مناصب سياسية، وشهد عدة انقلابات، ولعب دوراً مهماً في الاحداث واشترك بعدة مؤامرات وسجن عدة مرات، ثم انتقل إلى مصر التي كانت تتمتع باستقرار نسبي في تلك الفترة واشتغل في التدريس والقضاء، وقد ساعده هذا الاستقرار على التأليف والابداع[١٣].

وقد كان لاشتغال ابن خلدون في السياسة اثراً كبيراً على بناء شخصيته، حيث قضى مدة عشرين عاماً حاول من خلالها تحقيق طموحه في الجاه والسلطة حتى وصل إلى مبتغاه، حيث تدرج في عمله عند الحكام من منصب كاتب إلى اعلى المراتب بإشغاله منصب الحجابة[١٤]. وكان لحياته تلك انعكاساً كبيراً على فكره، حيث ذكر ما نصه:" والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج، وما يلحقها من الاحوال ويتبعها، فإنها خفية، ولعل ان يكون فيها ما يمنع من الحاقها بشبه وامثال، وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها، ولا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر؛ إذ كما اشتبها امر واحد، فلعلهما اختلفا في امور، فيكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم ألاحكام، وقياس الامور بعضها على بعض، إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب انظارهم، ونوع استدلالاتهم، فيقعون في الغلط كثيراً، ولايؤمن عليهم"[١٥].

وكان لتردي الاوضاع السياسية اثراً بالغاً على الحياة الفكرية التي تراجعت هي الاخرى، وقد عبر ابن خلدون[١٦] عن ذلك بقوله:" ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب واهله، لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه، بانتقاض عمرانه، وبداوة اهله، وصارت الامهات والدواوين تنسخ بالخطوط اليدوية، فينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط، وكثر الفساد والتصحيف،

فتستغلق على متصفحها، ولا يحصل منها على فائدة، الا في الاقل لا النادر، فقد دخل الخلل في ذلك في الفتيا، فإن غالب الاقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب، وانما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه، وتبع ذلك ايضاً ما يتصدى اليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته، وعدم الصنائع الوافية بمقاصده".

وقد انعكست هذه الاضطرابات التي شهدها العالم الاسلامي آنذاك على منهج ابن خلدون في كتابة التاريخ، وعلى نوعية الفكر الذي ابتكره، فقد نشأ في بيئة متأثرة بعوامل الفردية الشديدة، مما اثر في مواقف هذا المؤرخ الذي نشأ في بيئة مليئة بالأطماع، وكانت جميع الوسائل المتاحة لتحقيقها مشروعة من وجهة نظره، فكان يتصرف وفق ما تمليه عليه مصلحته(١٧).

كان ابن خلدون يملك دبلوماسية مميزة، ويعرف كيف يتعامل مع الحكام والملوك، ويتقرب منهم، ولذلك كانت اخلاقه لا تخلو من صفات الغدر والنفاق والانتهازية، التي لم يكن يتردد في التصريح عنها وكانه شيء يفخر به. فعند حديثه عن تفاصيل مقابلته مع تيمورلنك خارج اسوار دمشق عام ٨٠٤هـ، خلاصة القصة ان جيش تيمور لنك عندما حاصر دمشق وكان ابن خلدون آنذاك فيها، فخشي ان تقع المدينة بيد تيمورلنك، فيكون نصيبه الموت، فمضى لمقابلته، حيث يذكر:" فوقع في نفسي لأجل الوجل الذي كنت فيه ان افاوضه في شيء من ذلك يستريح اليه، ويأنس به مني، ففاتحته وقلت له: ايدك الله، لي اليوم ثلاثون او اربعون سنة اتمنى لقاءك، فقال الترجمان عبد الجبار لتيمورلنك: ما سبب ذلك؟ فقلت أمران: الاول انك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما اعتقد انه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول في الامور بالجزاف"(١٨).

وهذا الامر يفسر لنا كيف قام ابن خلدون بالاستجابة لطلب تيمورلنك عندما كلفه بتأليف كتاب عن المغرب، ويفسر لنا ايضاً عدم احتفاظه بنسخة من هذا الكتاب فيبدو انه خشي من اطلاع اهل المغرب عليه فيكون وسيلة لاتهامه بالخيانة، لأنه ضمن الكتاب معلومات مهمة عن جغرافية المغرب والدروب المؤدية اليه مما يسهل على تيمور لنك احتلال بلادهم.

ويصف لنا محمد عنان(١٩) تصرفات ابن خلدون بقوله:" كان ابن خلدون رجل الفرص، ينتهزها بأي الوسائل والصور، وكانت الغاية تبرر لديه كل واسطة، ولا يضيره في ذلك ان يجزى الخير بالشر، والاحسان بالإساءة، وهو صريح في تصويره هذه النزعة، لا يحاول اخفاءها".

ومن الامور المهمة التي اثرت في توجيه منهج ابن خلدون التاريخي، تأثره ببيئته، حيث كان ابن خلدون اقطاعيا، في وقت كان فيه الصراع محتدماً بين الطبقة الاقطاعية والطبقة البرجوازية. وهذا ما يفسر اهتمام ابن خلدون بشؤون الاقطاعيين في مؤلفاته، والثناء عليهم، واتهام من يقف امامهم(٢٠).

كما كان لاحتكاكه بالقبائل العربية والبربرية اثرٌ كبيرٌ في صقل شخصيته، حيث تمكن ابن خلدون من استمالة هذه القبائل إلى جانبه، وتوجيهها حيثما يشاء. وقد اشار احد الباحثين(٢١) إلى ان كتاباته في لمقدمة وتناوله لأفكاره الاجتماعية، كانت من وحي الحياة الطبيعية التي عاشها مع هذه القبائل.

كما يحدثنا احد الباحثين(٢٢) عن اثر البيئة التي نشأ فيها ابن خلدون على شخصيته، حيث خلفت فيه نزعتين متعارضتين، هما: حب المال والمنصب من جهة، وحب العلم من جهة اخرى، فيذكر ما نصه:" ان كل واحدة من هاتين النزعتين كانت عميقة الجذور وشديدة التأثير في نفسية ابن خلدون، انهما تنازعتا السيطرة على تلك النفسية مدة طويلة، وتغلبت إلى حد تارة الأولى على الثانية، وطوراً الثانية على الاولى، إلا أن هذه الغلبة لم تصبح حاسمة في وقت من الاوقات، وظلت النزعتان تؤثران في ابن خلدون طول حياته دون ان تستطيع الواحدة منهما القضاء على الأُخرى قضاء مبرماً".

احكام ابن خلدون التاريخية

اهتم ابن خلدون اهتماماً ملحوظاً بالحياة السياسية في المغرب الاسلامي، اكثر من اهتمامه المشرق العربي. وقد اشار طه حسين(٢٣) إلى ذلك بقوله:" اما بالنسبة للشعوب الاخرى فإن تاريخ ابن

خلدون ليس الا صورة من المؤلفات التاريخية الاخرى، وعلى ذلك ففيه ما فيها من العيوب. على ان ابن خلدون يعترف بأنه لم يكن متمكناً من تاريخ المشرق، وانه اعتزم في المبدأ ان يكتب تاريخ العرب والبربر، وهما العنصران اللذان تنازعا السيادة طويلاً في افريقيا، غير انه بعد رحلته إلى مصر، واحتكاكه بالمشرق، اتم مؤلفه واسماه هذه التسمية الغريبة".

وإن المتتبع لمنهج ابن خلدون في الكتابة التاريخية، يجده دائم التركيز على قضية ألاحكام التاريخية، فهو لا يترك مناسبة إلا وأشار فيها إلى اخطاء المؤرخين وخلو كتاباتهم من التحليل والنقد، فقد ذكر ما نصه :"وإن فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها إلينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل"[٢٤].

لقد أورد ابن خلدون[٢٥] احكاما عديدة على المؤرخين السابقين لعصره وهي:

١- الميل مع الهوى والتشيع للآراء والمذاهب.
٢- التزلف لذوي السلطان طمعاً بالحظوة والكسب.
٣- اخذ الاخبار على علاتها ثقة بالمنقول منهم.
٤- مطاوعة وساوس الاغراب والذهول عن المقاصد: يريد بذلك اخذ هؤلاء المؤرخين بروايات الاغراب الذين يكنون العداء للعرب، ويجهلون بقاصدهم، وبالتالي يغيرون الامور حسب مقاييسهم.
٥- الجهل بطبائع العمران: يريد بذلك أنهم يجهلون طبائع العمران، مما يجعلهم ينقلون اخباراً مستحيلة لا يقبلها العقل ولا تسمح بها قوانين الطبيعة.

وبالرغم من انتقاد ابن خلدون للمؤرخين السابقين له، وقوله انهم مجرد ناقلين للأخبار، الا ان من يطاع على كتاب العبر عن الفترات التاريخية السابقة لعصره، نجدها عبارة عن نسخ او نقل حرفي لكتب هؤلاء المؤرخين السابقين. ويبدو ان ما ضمنه في كتبه من احكام كان نتيجة خلو عصره من القمع الفكري للمؤرخين، مما شجعه في ابداء آرائه وطرح افكاره في حدود المعقول والمألوف.

ومن يطلع على كتاب تاريخ ابن خلدون(العبر) يجد أنه وقع في نفس المغالط التي حذر منها في كتابه (المقدمة)، فهو يؤكد على الالتزام بالموضوعية اثناء الكتابة، ولكنه لم يستطع تطبيقها في كتاباته التاريخية، نظراً لاتصاله بأصحاب النفوذ وارتباطه معهم بمصالح مشتركة جعلته متناقضاً مع نفسه، فكان يتقرب اليهم، ويثني عليهم ويرتقي بهم في انسابهم واخلاقهم.

ولعل خير مثال على محاباة ابن خلدون للحكام في عصره هو خطابه للسلطان صاحب مصر قائلاً:" الملك الظاهر، والسيد الاجل، العالم العادل، المؤيد المجاهد، المرابط المثاغر، المظفر الشاهنشاه، سيف الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، محي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، مولى الاحسان، مملك اصحاب التخوت والاسر والتيجان، واهب الاقاليم والاقطار، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ملك البحرين، مملك سبيل القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل الله في ارضه، القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة، مؤمن الارض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، قسيم امير المؤمنين، ابو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين..." [٢٦].

وهذا النص يجعلنا بغاية الحذر عند التعامل مع مادة ابن خلدون التاريخية، خاصة تلك التي يضمنها احكاماً اخلاقية عن الاشخاص والاحداث سواء في عصره ام من العصور السابقة له.

وأخيرا فإن ابن خلدون يطلق حكما اخيرا على المؤرخين يختم به حديثه فيقول:" هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل ولا حركات العوامل مثل ابن إسحاق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن

عمر الواقدي وسيف بن عمر الأسدي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الاثبات ومشهور بين الحفظة الثقات إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم"[٢٧].

ولعل من بين أبرز احكام ابن خلدون التاريخية، تلك التي اطلقها على العرب، تلك ألاحكام الصريحة التي نالت من العرب ومروءاتهم وصفاتهم، ناسفاً بأحكامه كل تراثهم السياسي والفكري. ومن هذه ألاحكام قوله: " أن العرب لا يتغلبون الا على البسائط وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم"[٢٨].

وكذلك قوله:" أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس"[٢٩].

ومن احكامه التاريخية الصريحة على العرب، قوله:" إن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالا في القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج إليهم غالبا للعصبية التي بها المدافعة فكان مضطرا إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعا بالقهر وإلا لم تستقم سياسته وأيضا فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس"[٣٠].

ويضيف إلى ذلك كله حكماً تاريخاً آخر بغاية الخطورة، ونصه: " من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة"[٣١].

ومن الغريب أن يتورط ابن خلدون بإصدار مثل هذه ألاحكام الصريحة على العرب، وهو الذي ربط نسبه بهم بقوة في كتابه (التعريف بابن خلون)[٣٢]، ولقد انقسم الباحثون إلى قسمين في الرد على احكامه تلك، فمنهم من يرى انه قصد بكلمة عرب البدو(الاعراب) [٣٣].

أما القسم الآخر فيرى: ان ابن خلدون قد تعمد الاساءة إلى العرب والنيل من انجازاتهم، ومنهم محمد عبد الله عنان[٣٤] بقوله: " فإذا كان ابن خلدون يريد بمقولته: ان العرب إذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب، يقصد ان العرب حين تغلبوا على العراق والشام تقوض عمرانها، فالعرب لم يخربوا تلك الاقطار، ولكنهم على العكس من ذلك اقاموا فيها دولاً ومجتمعات عامرة زاهرة". ثم يستطرد قائلاً: "

ويكفي لكي ندحض نظرية ابن خلدون في خواص الفتوح العربية ان نستشهد بقيام الدولة الاموية في المشرق، ثم قيام الدولة الاسلامية في اسبانيا"[٣٥].

وهذه ألاحكام التاريخية جعلت عنان[٣٦] يشكك بعروبة ابن خلدون، وينسبه إلى الشعب البربري، الذي افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة، وفرضوا عليه دينهم ولغتهم واضطروه بعد طول نضال إلى ان يندمج في الكتلة الاسلامية، وان يخضع راغماً لرئاسة العرب في المغرب واسبانيا. هذا وقد نشأ ابن خلدون في هذا المجتمع البربري، يضطرم بمشاعره وتقاليده، ونشات فيه اسرته قبل مائة عام، ونعمت برعاية الدولة الحفصية الموحدية التي ترجع إلى اصول بربرية، فليس غريباً ان يصدر ابن خلدون اشد ألاحكام واقساها على العرب.

أما طه حسين[٣٧]، فإنه يذكر:" ومن الادلة على كونه يرجع إلى أصول بربرية ـ أيضاً ـ المعلومات التي قدمها عن البربر، لاسيما منذ اتصالهم بالعرب، قد تكون اصدق ما لدينا حتى العصور الحديثة، فقد عاش ابن خلدون بين هذه القبائل، وعرفها اكثر من أي مؤرخ آخر".

وبالرغم من أن ابن خلدون قد أورد في كتابه العبر مادة دسمة عن البربر قد لا نجدها في مصنف آخر، الا ان هذا لا يعني بالضرورة انه من البربر، فهو مؤرخ ورحالة، اتبع منهجاً خاصاً في تقصي الحقائق، وبما ان البربر كانوا يشكلون في عصره قوة لا يستهان، بها فمن الطبيعي ان يتناول ابن خلدون هذا المجتمع بالدراسة والتقصي. ومن ثم فإن ما أورد من آراء لا يمكن ان تكون نهاية القول فيما يتعلق بعروبة ابن خلدون من عدمها.

وقد أورد ابن خلدون في مؤلفاته أحكاماً تاريخية كثيرة، فهو لا يمر بعصر من العصور إلا واطلق على رجاله ومؤسساته احكاماً، ورغم بعد المدة التي تفصل ما بين عصره والاحداث التي حللها، إلا أن المتتبع لمادته التاريخية يجده واثقاً من كل تلك ألاحكام التي اطلقها.

وقد بدأت احكام ابن خلدون التاريخية منذ عصر النبوة، فكانت اولى احكامه حول نسب النبي(ص)، فيذكر ما نصه: " وأما حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه إلى عدنان قال من ههنا كذب النسابون يعنى من عدنان فقد أنكر السهيلي روايته من طريق ابن عباس مرفوعا وقال الأصح انه موقوف على ابن مسعود وخرج السهيلي عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال معد ابن عدنان بن أدد بن زيد بن البرى بن أعراق الثرى. قال: وفسرت أم سلمة زيدا بأنه الهميسع والبرى بأنه نبت أو نابت وأعراق الثرى بأنه إسماعيل وإسماعيل هو ابن إبراهيم وإبراهيم لم تأكله النار كما لا تأكل الثرى أورد السهيلي تفسير أم سلمة وهو الصحيح وقال انما معناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم كلكم بنو آدم وادم من تراب لا يريد أن الهميسع ومن دونه ابن لإسماعيل لصلبه وعضد ذلك باتفاق الاخبار على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل التي تستحيل في العادة إن يكون فيها بينهما أربعة آباء أو سبعة أو عشرة أو عشرون لان المدة أطول من هذا كله كما نذكره في نسب عدنان فلم يبق في الحديث متمسك لاحد من الفريقين"[٣٨].

وهذه الرواية الطويلة ماهي الا تحليل للمواقف والروايات التي حاول الرواة اثباتها، وعلى الرغم من طول المدة التي تفصل ابن خلدون عن هؤلاء الرواة، إلا أن ظاهر هذه الرواية يثبت معرفته وعمقه بالأنساب وقدرته على فصل الغث من السمين.

ولعل من بين أخطر الأحكام التاريخية التي ضمن ابن خلدون تاريخه بها هي تلك التي تخص قضية امامة علي بن ابي طالب، فقد ذكر ما نصه:" علم أن الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وإن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلته الشريعة بل أكثرها

موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية إلا في علي ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أقضاكم علي ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الامر الواجبة طاعتهم . بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكما في قضية الإمامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الامر من بعدي فلم يبايعه إلا علي ومن الخفي عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت فإنه بعث بها أولا أبا بكر ثم أوحي إليه ليبلغه رجل منك أو من قومك فبعث عليا ليكون القارئ المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي وأيضا فلم يعرف أنه قدم أحدا على علي وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمر بن العاص أخرى وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره"[٣٩].

ومن ثم فإن ابن خلدون لا يرى هذه الروايات حجة كافية لأثبات امامة علي بن ابي طالب، غير مهتماً بكل ما ساقه المؤرخون الشيعة وغيرهم من روايات لأثبات ذلك، بعضها مبني على نصوص قرآنية، واخرى على احاديث تنسب للرسول(ص)، مما يعطي احامه صفة حتمية.

ومن الأحكام المهمة التي أوردها ابن خلدون، هو تاريخ غزوة الخندق الذي خالف فيه باقي المؤرخين فقد ذكر ما نصه: "كانت في شوال من السنة الخامسة والصحيح أنها في الرابعة ويقويه ان ابن عمر يقول ردني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فليس بينهما الا سنة واحدة وهو الصحيح فهي قبل دومة الجندل بلا شك"[٤٠].

وهو بروايته تلك يخالف باقي المؤرخين[٤١] الذين اتفقوا على انها حدثت في السنة الخامسة للهجرة، متبعاً في ذلك المنهج الاستدلالي للوصول إلى حكم قطعي على تاريخ هذه الرواية.

كما أورد ابن خلدون[٤٢] حكماً مهماً عند حديثة عن قضية مقتل عثمان، تلك الحادثة التي افرد لها مادة تاريخية واسعة، ثم ختم حديثه عن هذه الحادثة بقوله:" وإذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان واختلاف الصحابة من بعد وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة".

بالرغم من النقد الكبير الذي وجهه ابن خلدون لمناهج المؤرخين في كتابة التاريخ، خاصة قضية قبول الروايات دون تمحيصها ونقدها، الا اننا نجده يقبل بعض الروايات دون أي تمحيص، ويبدو ان ابن خلدون كان يثق ببعض المؤرخين ويعتبر رواياتهم حجة تاريخية. فعند حديثه عن تنازل الامام الحسن عن السلطة لمعاوية، نقل مادته التاريخية بشكل يكاد يكون متطابقاً من تاريخ الطبري، ولم يمحص روايته خاصة فيما يتعلق بشروط الصلح، حيث ذكر ما نصه:" فكتب إلى معاوية يذكر له النزول عن الامر على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف ويعطيه خراج دارابجرد من فارس وألا يشتم عليا وهو يسمع وأخبر بذلك أخوه الحسين وعبد الله بن جعفر وعذلاه فلم يرجع إليهما وبلغت صحيفته إلى معاوية فأمسكها وكان قد بعث عبد الله بن عامر وعبد الله بن سمرة إلى الحسن ومعهما صحيفة بيضاء ختم في أسفلها وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهو لك فاشترط فيها أضعاف ما كان في الصحيفة فلما سلم له وطالبه في الشروط أعطاه ما في الصحيفة الأولى وقال هو الذي طلبت ثم نزعه أهل البصرة خراج دارابجرد وقالوا هو فيئنا لا نعطيه"[٤٣].

وهذه الشروط جاءت عند الطبري[٤٤]، وخالفها بعض المؤرخين[٤٥] لأنها لا تنسجم مع اخلاق الامام الحسن، لكن ابن خلدون يرى ان الطبري موضوعياً في طرحه قائلاً:" كتاب محمد بن جرير الطبري وهو تاريخه الكبير فإنه أوثق ما رأيناه في ذلك وأبعد من المطاعن عن الشبه في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين فكثيرا ما يوجد في كلام المؤرخين أخبار فيها مطاعن وشبه في حقهم"[٤٦].

فالحكم التاريخي عند ابن خلدون ازاء هذه القضية مبني على رواية الطبري الذي يراه ابن خلدون منصفاً لا يمكن ان يتجنى على الصحابة مثل بعض المؤرخين، وهذا الحكم يعد من ابرز احكام ابن خلدون التاريخية لأنه يمثل وجهة نظره الخاصة تجاه هذا المؤرخ، التي قد لا يتفق عليها غيره ممن اعتمد على تاريخ الطبري.

وذكر ابن خلدون في مؤلفاته احكاماً تاريخية مهمة عن الدولة الاموية، فعند حديثه عن الخلافة، انكر ابن خلدون حق الامويين فيها من الاساس، فيذكر ما نصه: " فاتصلت رياستهم على قريش في الاسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولا ينسى عهدها أيام شغل بنى هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا من أيديهم بما اعتاضوا عنها من مباشرة الوحي وشرف القرب من الله برسوله وما زال الناس يعرفون ذلك لبنى أمية"(٤٧).

ويذكر أيضاً ما نصه:" وخلع الحسن نفسه واتفقت الجماعة على بيعة معاوية في منتصف سنة احدى وأربعين عند ما نسي الناس شأن النبوة والخوارق ورجعوا إلى أمر العصبية والتغالب وتعين بنو أمية للغلب على مضر وسائر العرب"(٤٨).

لكن ابن خلدون ورغم اقراره بأحقية بني هاشم بالخلافة، إلا أنه لم يخفي اعجابه بمعاوية، فهو لا يترك مناسبة إلا واشاد بمعاوية فيها. فعند حديثه عن بيعة يزيد ذكر ما نصه:" عهد معاوية إلى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الامر إلى من سواهم فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا الله لمعاوية من ذلك"(٤٩).

كما اشاد ابن خلدون(٥٠) بإمكانيات معاوية السياسية قائلاً:" ومعاوية يومئذ كبيرهم فلم تتعده الخلافة ولا ساهمه فيها غيره فاستوت قدمه واستفحل شأنه واستحكمت في أرض مصر رياسته وتوثق عقده وأقام في سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة التي لم يكن أحد من قومه أو فر فيها منه يدا من أهل الترشيح من ولد فاطمة وبنى هاشم وآل الزبير وأمثالهم".

وفي موضع آخر يحكم ابن خلدون(٥١) ببراءة معاوية من تهمة قتل الامام الحسن قائلاً:" وما ينقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجه جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية من ذلك".

ولعل من بين ابرز احكام ابن خلدون التاريخية عن الدولة الاموية ما نصه:" وكذلك كان مروان ابن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكا لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة ثم تدرج الامر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية"(٥٢).

وفي موضع آخر ذكر ما نصه:" ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنمهم معالي الأمور ورفضهم دنياتها حتى أفضى الامر إلى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باستدراجه وأمنا لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرئاسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة"(٥٣).

وبحكمه هذا يرى ابن خلدون بأن ضياع الدولة الاموية وزوالها في المشرق الاسلامي، كان سببه وصول خلفاء ضعاف غير قادرين على النهوض بأعباء السياسة، بعد تخليهم عن الحق وعصيانهم الله.

كما أورد ابن خلدون احكاماً تاريخية مهمة عن الخلفاء العباسيين، بعضها كانت اتهامات لهم، والبعض الآخر كان دفاعاً عنهم، فيذكر ما نصه:" الصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الامر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الامر ملكا بحتا كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضا مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولا ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار"(٥٤).

وفي موضع آخر ذكر ما نصه:" حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الامر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه"(٥٥).

وهو بذلك يحكم على خلفاء بني العباس الذين جاءوا بعد الرشيد بانهم نبذوا الدين، فكان انهيارهم عقوبة الهية لهم، وهو نفس الحكم الذي اطلقه على خلفاء بني امية.

وفي اكثر من موضع في مؤلفات ابن خلدون وصف خلفاء بني العباس بأنهم خلفاء مستبدون، وينعتهم بالفساد والعبث، خاصة عصر الخليفة المستعصم، آخر خلفاء بني العباس، إذ ذكر ما نصه:" صرف هولاكو وجهه إلى بلاد اصبهان وفارس، ثم إلى الخلفاء المستبدين ببغداد، وعراق العرب، فاستولى على تلك النواحي، واقتحم بغداد على الخليفة المستعصم، آخر بني العباس، وقتله، واعظم فيها الفساد"(٥٦).

كما ذكر ما نصه:" وأهل الدولة مستبدون على الخلافة والأحوال متلاشية فتحير أبو جعفر وكثرت عليه المطالبات وذهبت هيبته فاختفى لثلاثة أشهر ونصف من وزارته واستوزر الراضي مكانه أبا القاسم سليمان ابن الحسن فكان حاله مثل حال من قبله في قلة المال ووقوف الحال"(٥٧).

ويصف بغداد بأنها معلولة قائلاً:" ولم يحصل من ملوكهم اهتمام لحسم ذلك لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي وعامة بغداد أهون عليهم من أن يصرفوا همتهم عن العظائم إليهم فاستمرت هذه العلة ببغداد ولم يقلع عنها إلى أن اختلفت جدتها وتلاشى عمرانها"(٥٨).

ومن احكام ابن خلدون التاريخية المهة التي ضمنها كتابه العبر، ما ذكره حول قضية العباسة اخت الرشيد، اذ يجزم ابن خلدون ببراءتها، ويصف روايات المؤرخين عنها (بالروايات المدخولة)، قائلاً:" ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سببن نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها (زعموا في حالة السكر) فحملت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده والعباسة بنت محمد المهدي ابن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد ابن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي (صلعم) ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا

من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الاشراف وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد من الناس"(٥٩).

وبروايته تلك، اعطى ابن خلدون الحق لنفسه كمؤرخ اطلاق احكام تاريخية عن الشخصيات وفق معطياته الشخصية، غير مهتماً بروايات المؤرخين(٦٠)، ومدى مصداقيتهم فيما ينقلونه من احداث، فرواياتهم مدخولة، وبعيدة عن الصحة، لانهم اساءوا إلى شخصية لا يمكن ان تكون موضع شك بأي حال من الاحوال.

ثم يعود ليبين حقيقة نكبة البرامكة، من خلال حكمه عليهم بالفساد والاستبداد قائلاً:" وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجافهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت فتوجه الايثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية"(٦١).

وان المتتبع لأحكام ابن خلدون التاريخية، يجده يخرج عن شرطه في ان التاريخ ليس استجابة للعاطفة، ولكنه للأحداث، كما تقتضيها الطبيعة الانسانية، لأنه يطلق احكاماً تاريخية حتمية، ادخل فيها العاطفة، فوقع في نفس المحظور الذي انتقده على المؤرخين السابقين. فعند حديثه عن الرشيد، استحال ان يشربا الخمر قائلاً:" وأما ما تموه له الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاورته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من موعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها"(٦٢).

وكذلك أورد نصاً آخر ينفي فيه تهمة معاقرة المأمون للخمر، قائلاً:" وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم إنما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون إنما كانت خلة في الدين ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت ونقل في فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويلتمس الاناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكثم وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعا فأين هذا من المعاقرة وأيضا فإن يحيى بن أكثم كان من علية أهل الحديث"(٦٣).

ومن احكام ابن خلدون التاريخية المهمة ايضاً، هو اثبات نسب العبيدين، ونفي كل الروايات التي حاولت نفي نسبهم عن اهل البيت، فذكر ما نصه:" ومن الاخبار الواهية ما يذهب اليه الكثير من

المؤرخين والاثبات في العبيدين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعي بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الإسكندرية في زي التجار ونمي خبرهما إلى عيسى النوشري عامل مصر والإسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى إذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي فأفلتوا إلى المغرب وأن المعتضد أو عز إلى الأغالبة أمراء أفريقيا بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة بأخذ الآفاق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما فعثر أليشع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر الشيعة على الأغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية ثم باليمن ثم بالإسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بني العباس في ممالك الاسلام شق الأبلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البسا سيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حولا كاملا وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال الامر"[٦٤].

وإن هذه الرواية الطويلة التي ساقها ابن خلدون في تاريخه، دليلاً على استيعابه الكامل لتاريخ هذه المنطقة، وفهمه للتطورات السياسية والفكرية فيها، حتى تبدو احكامه على هذه القضية احكاماً حتمية لا تحتمل المراجعة والطعن.

ولعل من بين اهم واخطر احكام ابن خلدون التاريخية، الحكم الذي أطلقه على واحدة من أهم قضايا الامامية، وهي قضية المهدي المنتظر، حيث ذكر ما نصه:" يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم في الحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الامر إلى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفية يقول إن الامام الذي مات يرجع إلى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف والذي مر على قرية وقتيل بني إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها"[٦٥].

وبحكمه هذا ينفي ابن خلدون واحدة من أبرز وأهم القضايا التاريخية، التي كانت وما زالت مثار جدل بين المؤرخين، إذ يرى ابن خلدون ان حجج الامامية عن هذه القضية غير مقنعة.

نتائج الدراسة:

١- ان المتمعن في كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، يكشف حب هذا المؤرخ الجم لنفسه ورغبته في الظهور والتعالي، مما انعكس على طبيعة أحكامه التي اتصفت بالحتمية.

٢- ضَمنَ ابن خلدون مصنفاته احكاماً تاريخية مهمة عن المؤرخين الذين سبقوه ووصف كتاباتهم بالمدخولة، وشكك في موضوعيتها، بينما أطلق احكاماً أخرى مدح فيها مؤرخين آخرين مثل ابن إسحاق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الأسدي.

٣- ضمن ابن خلدون مصنفاته أحكاماً تاريخية بغاية الخطورة، منها أحكامه القاسية على العرب، وتشكيكه بقدراتهم ووصفهم بالمتخلفين والعاجزين، مما جعل بعض الباحثين المعاصرين يشكك بعروبته.
٤- امتدت أحكام ابن خلدون التاريخية على طول التاريخ الاسلامي، بدءاً من عصر الرسول وحتى العصر الذي عاش فيه، فأورد أحكاماً متنوعة عن الشخصيات والمؤسسات والدول، بعضها تضمن نقداً لاذعاً وألاخرى كانت مدحاً واطراءً.
٥- حاول ابن خلدون في احكامه، ان يبرء بعض الشخصيات التي اتمها المؤرخون، فاضطلع بمهمة الدفاع عنها، كتبرئته لمعاوية من تهمة قتله للحسن بن علي، وتبرئة العباسة اخت الرشيد من قصة زواجها بجعفر البرمكي، ونفيه تهمة شرب الخمر عن الرشيد، الذي يرى بأن المؤرخين الصقوها به وهو بريء منها.
٦- أورد ابن خلدون عدداً من مزايا المؤرخ الصالح، الذي يجب ان لا يتشيع لأهل الفرق والمذاهب، ويبتعد عن التزلف للسلطان وغيرها من الصفات، إلا أن المدقق في مصنفاته يجد أنه وقع في المحذور الذي طالما حذر منه، فنجده أحياناً ينساق وراء عاطفته، مما جعل بعض احكامه التاريخية أحكاماً غير موضوعية.
٧- بالرغم من نشأة ابن خلدون المغربية، إلا أنه ضمن مصنفاته احكاماً تاريخية عن بلاد المشرق لا تقل أهمية عن تلك التي اطلقها على بلاد المغرب، مما جعل مادته التاريخية تتصف بالشمولية والتنوع.

الهوامش:

١- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، ٣-٤.
٢- التعريف بابن خلدون،١٧.
٣- ابن خلدون، المقدمة، ٨.
٤- قلعة ابن سلامة: من بلاد بني توجين، هذا الحي من أعظم أحياء بنى يادين وأوقرهم عددا وكانت مواطنهم حفافى وادى شلف قبلة جبل وانشريس من أرض السرسو وهو المسمى لهذا العهد نهرصا وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منه بطون من لواتة. ينظر: ابن خلدون، العبر، ١٥٤/٧؛ ابن خلدون، التعريف يابن خلدون، ٢٤٥.
٥- التعريف بابن خلدون، ٢٤٥-٢٤٦.
٦- التعريف بابن خلدون، ٢٤٦.
٧- وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الاعداد إذا توالت متفاضلة بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد. ينظر: ابن خلدون، العبر، ٤٨٢/١؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ٦٢/١.
٨- بدوي، مؤلفات ابن خلدون، ٢٣٩.
٩- التعريف بابن خلدون، ٨٠.
١٠- عبد الموالي، ابن خلدون، ٥.
١١- المقدمة، ٣٠.
١٢- العبر، ٤٢٠/١.
١٣- ابن خلدون، ابن خلدون ورسالته للقضاة، ٣٨.
١٤- الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ٩٠.
١٥- المقدمة، ٣٣٧.
١٦- المقدمة، ٢٦٨.
١٧- المكني، الفكر الفلسفي عند ابن خلدون، ٢٧٣.
١٨- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ٤٣١.
١٩- عنان، ابن خلدون، ٢٧٨.
٢٠- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ٦٣.
٢١- النعمي، المناهج وطرق التعليم عند القابسي وابن خلدون، ٦٣.

٢٢- الحصري، دراسات في مقدمة ابن خلدون، ٥١.
٢٣- طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ٢٦.
٢٤- ابن خلدون، العبر، ٤/١.
٢٥- المقدمة،٣٣.
٢٦- التعريف بابن خلدون، ٢٦٧.
٢٧- ابن خلدون، العبر، ٤/١.
٢٨- ابن خلدون، العبر، ١٤٩/١.
٢٩- ابن خلدون، العبر، ١٤٩/١.
٣٠- ابن خلدون، العبر، ١٥١/١.
٣١- ابن خلدون، العبر، ٥٤٣/١.
٣٢- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ١٧.
٣٣- الحصري، مقدمة ابن خلدون، ١٥١.
٣٤- عنان، ابن خلدون، ١٦٩.
٣٥- عنان، ابن خلدون، ١٧٠.
٣٦- عنان، ابن خلدون، ١٧٥.
٣٧- فلسفة ابن خلدون، ٢٦.
٣٨- العبر، ٣/٢.
٣٩- العبر، ١٦٩/١.
٤٠- العبر، ٢٩/٢.
٤١- الطبري، تاريخ، ٢٣٣/٢؛ الخطيب البغدادي، ١٨١/١؛ ابن الاثير، اسد الغابة، ٢٢/١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠٦/٤.
٤٢- العبر، ٢١٥/١.
٤٣- العبر، ١٨٦/٢.
٤٤- تاريخ الطبري، ١٢٢/٤.
٤٥- ابن اعثم، الفتوح، ١٥٨/٤.
٤٦- العبر، ١٨٨/٢.
٤٧- العبر، ٣/ ٣.
٤٨- العبر، ٤/٣.
٤٩- العبر، ٢٠٦/١.
٥٠- العبر، ٤/٣.
٥١- العبر، ١٨٧/٢.
٥٢- العبر، ٢٠٦/١.
٥٣- العبر، ٢٠٧/١.
٥٤- العبر، ٢٠٨/١.
٥٥- العبر، ٢٠٧/١.
٥٦- التعريف بابن خلدون، ٤٠١.
٥٧- العبر، ٤٠١/٣.
٥٨- العبر، ٤٧٧/٣.
٥٩- العبر، ١٥/١.
٦٠- المسعودي، مروج الذهب، ٣٦٧/٣؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان ٣٣٢/١؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، ٣٠/١٢؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٣٢/١١؛ ابن كثي، البداية والنهاية، ٢٠٤/١٠.
٦١- العبر، ١٦/١.
٦٢- العبر، ١٧/١.
٦٣- العبر/ ١٩/١.
٦٤- العبر، ٢١/١.
٦٥- الغبر، ١٩٩/١.

Bibliography:

awlaan: almasadir

1- abn al'athir, abu alhasan ealii bin 'abi alkarma(ta: 630hi/1232mi), alkamil fi altaarikh , taha: eabd allah alqadi, dar alkutub aleilmiati, (birut-1988ma).
2- - abn aetham , abu muhamad ahmad bin muhamad alkufi(t:314hi/ 926mi), alfutuha, dar alnadwat , ta1, (bayrut - la . t).
3- aldhahabi, 'abu eabd allh shams aldiyn ahmad bin muhamadu(t:748h/1347mi), tarikh al'iislami, maktabat alqudsi, (alqahrati-1948mi).
4- alkhatib albaghdadiu, al'iimam alhafiz 'abi bakr aihmad bin eali (t:463h/1070mi), tarikh baghdad, taha: mustafaa eabd alqadir eataa, dar alkutub aleilmiati, (birut-1417h).
5- - abn khalkana, shams aldiyn 'abu aleabaas aihmad bin 'iibrahim bin 'abi bakura(t:681h/1282mi), wafayat al'aeyan waniba' 'abna' alzamani, taha: muhamad muhyi aldiyn eabd alhamayd , matbaeat alsaeadati, (alqahirati-1947mu).
6- alsafadi, salah aldiyn khalil bin ayibik(764h/1363mi), alwafi balufyat, taha: aihmad aliarnawuwt w turki mustafaa, dar ahya' altharathi, (birut-2000ma).
7- abin khaldun , eabd alrahman bin muhamadu(t:808h/1405ma), - almuqadimatu, dar 'iihya' alturath alearabii, ta4, (birut-la.ti). - aleibar (tarikh abn khaldun), muasasat alaelami, ta4, (birut-la.ti). - altaerif biabn khaldun warihlatuh sharqan waghirba, manshurat dar alkitaab allubnani, (birut-1979). - abn khaldun warisalatuh lilqudaat mazil almalam ean hukaam alanam, ta1, taha: alduktur fuad eabd almuneim aihmad, dar alwatani, (alriyadi-1417h).
8- khalifat, haji(1067h-1691mi), kashaf alzununi, dar ahya' alturath alearabii, (birut-la.ti).
9- abn kathir aldimashqi, 'abu alfida 'iismaeil bin eamra(t:774hi/1372mi), albidayat walnihayat fi altaarikhi, tah: eali shiri , dar 'iihya' alturath alearabii, ta1, (birut-1988ma).
10- almaseudi, 'abu alhasan eali bin alhusayn bin eali (t:346h/957mi), murawij aldhahab wamaeadin aljawhar, taha: alshaykh qasim alshamaei alrafaei, dar alqalami, ta1, (birut-1989ma).

thanyaan: almarajie

1- bdui, eabd alrahman, mualafat abn khaldun, dar almaearifi, (alqahrati-1962).
2- alhasriu, satiea, dirasat fi muqadimat abn khaldun, maktabat alkhanji, (alqahrati-1984).
3- tah husayn, falsafat abn khaldun aliajtimaeiati, lajnat altaerif bialtarjamat walnashri, (alqahirati-1999).

4- eabd almu'iilaa, muhamad, abn khaldun waeulum almujtamaei, aldaar alearabiat lilkitabi, (tarabuls-1980).
5- enani, muhamad eabd allah, abn khaldun, matbaeat lajnat altaalif waltarjamat walnashra, almaehad alkhalifii lilabhath almaghribiati, (alqahirati-1939).
6- almikni, eabd alrazaaqi, alfikr alfalsafii eind abn khaldun, matbaeat aliaskandariati, (aliaskandiriat-la.ti).
7- maghribi, eabd almaghni, alfikr aliajtimaeiu eind abn khaldun, almuasasat alwataniat lilkitabi, (aljazayir-1986).
8- alniemi, eabd allah alamyn, almanahij waturuq altaelim eind alqabisi waibn khaldun, markaz aldirasat alliybi, (trabuls-1984).